بين فكي متاهة
(بين الواقع والخيال)
د. عهد حاتم الابراهيم

بين فكيّ متاهة

بين الواقع والخيال

د. عهد حاتم الابراهيم

الإهداء

ولأن الأبجديّة غير عادلة ومنصفة في بعض الأحيان، ولأنّها لن تنصفني كالعادة

سأختصر قولي

أهدي هذا الكتاب لمن هم أبجديتي الّتي ما خذلتني يومًا ووقفت بجانبي دائمًا عائلتي الّتي أحبّ

أدامهم الله لي عونًا وسندًا وحياة

وحروفي المصّطفة جنبًا إلى جنب في دعمي وتحفيزي أصدقائي لا حرمني الله وجودهم في حياتي

المقدمة

هل سَبق ورأيت نسختين منك كلّ واحدة تحمل طابعًا خاصًا؟!

هل سَبق وتناقشت مع نسختيك اللّتين تحاولان جرّك إلى المجهول؟!

سبق وأن طُرِدّتَ من روحك الملائكية، وقرينك الشيطانيّ كلٍّ منها يحاول الأخذ بيدك إلى متاهات لا خروج منها ؟!

هل سَبق وتحدثت مع أشياء لا وجود لها إلّا في مخيلتك أو هكذا كنّت تظّن؟!

هل تعرضت لأحجيّةٍ معقدة عليك أن تجتازها لتنجو بحياتك؟

بين دفتيّ هذا الكتاب سترى هذا وتواجه هذه المخاوف الّتي لطالما حاولت الابتعاد عنها..

****

أُدعى أوس ولأنّ لكلِّ أمرؤٍ من اسمه نصيب، كان جُلَّ النَصيب لي من اسمي، بَيدّ أنني أحمل تلك الخصلة الّتي كم تمنيت ألّا أمتلكها مطلقًا، لأنَّها تقودني إلى المشاكل كالمغناطيس، عصبيتي المفرطة الّتي لم ولن استطيع أن أهزمها يومًا أو أتغلب عليها، نَشب نقاشٌ حادّ بيني وبين والدي الّذي يودّ أن يَفرض عليّ غطرسته الّتي اعتدتها، ويتحكم بحياتي كما يشاء، وكأنّه يملك مفاتيحها، فكان جزائي أن أُطرَد خارج المنزل بسبب تمسكي بعنادي وعصبيتي الّتي وشمتني بعذابي الدائم، هَرعت خارج المنزل لا أرى أمامي، يقودني شيطان انزعاجي لا قدماي، حتى رسوت في منزلٍ غريب الأطوار، منزلًا يشكل متاهة عجيبة، على ما يبدو أنَّه كُتِب عليّ العذاب حتّى في فتح الأبواب، تابعوا معي ما جرى هناك..

إنَّها الحادية عشر ليلًا، هذا ما تُشير إليّه عقارب ساعتي، أول صحوتي من نوبة الغضب الّتي اعترتني نتيجة النقاش، لا أعلم لماذا أشعر في كلّ مرّة يدور بيني وبين والدي حوار كأنني أخوض معركةً لا نقاش؟

وأدخل بعدها دائمًا في ما يشبه غيبوبة لكن وأنا على قيد التصرف والتحرك والتلفظ بكل ما يوخز قلبي بعدما أستفيق من تلك النوبة الجارفة، ويبدأ بعدها تأنيب الضمير، ودائمًا يصحو ضميري في وقتٍ متأخر كما العادة، احتجت بعض الوقت لأعلم أنني أجلس في بقعة محرّمة على بني البشر كما يَدّعي الجميع، إنّه ذاك المنزل الّذي لست أعلم كيف وصلت إليه، كيف رَست أقدامي هنا؟!

وكيف حَللتُ في هذه الأرض المُحرّمة؟!

وكيف ما زلت هنا حتّى الآن بعد أن علمت أنّي في المنزل المهجور الّذي لم تطأ أرضه قدم إنسان منذ عقودٍ خَلت؟!

تَلفَتُ ميمنةً وميسرة بنظرةٍ فاحصة لما حولي، الظلام يَعم أرجاء المكان.

قلبي يُخبرني بأن أعود أدراجي، وعقلي يطلب نقيض ذلك، والجدير بالاتباع في هذه المواقف هو الإحساس، وخاصةً بعد كلّ الشائعات الّتي رُويت عن هذه البقعة في الذات، استدرت لأعود أدراجي كما يقول المثل "مية كلمة جبان ولا كلمة الله يرحمه"؛ ولكن هذا المكان الغريب لم يسنح لي حتّى بالتفكير في الموضوع..

كستني الدهشة والذهول عندما لم أجد الباب، وسيطرت عليّ الحيرة بحقِّ الله كيف وصلت إلى هنا؟!

بينما أنا عالقٌ بين إشارات التعجب والاستفهام، غارقٌ في شرودي، فجأة!!

اشتعلت الأضواء في المكان، لأُفاجئ بوجودي في غرفةٍ مغلقة لا سبيل للخروج منها.

أيعقل هذا؟!

المساحة الّتي يشغلها هذا المنزل تتسع لقصر، والآن أكتشف أنّه مكون من غرفة واحدة لا شّك أنَّ هناك سرٌّ غريب، وما هذه الغرفة إلّا بوابة لمتاهةٍ يصعب تجاوزها.

هدوءٌ مُخيف.. أضواءٌ تُنار تارةً وأخرى تطفئ، لأول مرّة في حياتي أكتشف أنَّ للسكون صوت مرعب تهتز له الأوصال..

تمالكتُ أعصابي وسِرتُ لأتفقد المكان، لأنّه وكما يبدو لي أنَّ ليلةً عصيبة بانتظاري، تبًّا لتلك العصبية ستودي بي للهلاك يومًا ما.

حملتُ مفاصلي الّتي حُلَّت من الرعبة الّتي اعتمرت فؤادي، ومضيت أجول أنحاء الغرفة الأشبه بصندوقٍ مُغلق لا نوافذ فيه ولا أبواب، استعنت برّب الأرباب وبدأت أبحث عن شيء أجهل ماهيته؛ ولكن ما حيلة من لا يملك خيارًا سوى البحث عن إبرةٍ في كومة قش.

لا أعلم حقيقة ما يحدث صراحةً؟!

أتجول وأتحسس جدران غرفةٍ رطبة غير جافة ولست أدري سبب ذلك؟

كل شيء حولي غريب، ذكرت سابقًا أضواءً تُنار وتطفئ وما يثير الدهشة أنّه لا يوجد أيّ مصباح فكيف ذلك؟!

تحسست الجدران حتّى استوقفني ثقبًا صغيرًا، وكأن بصيصًا من الأمل أُوقِد أمامي، ليتلاشى هذا البصيص عندما أدركت أنَّ الحائط سدًا منيعًا لا يُهدَم ولا يُنقب.

هناك شيئًا ما عالق في هذا الثقب، حاولت جاهدًا حتّى استطعت إخراجه.

ما هذا؟!!

ورقة تحمل اللون الأصفر لِقِدمها، يبدو أنّها مكثت طويلًا في هذا الثقب الغائر في خاصرة حائط غريب الأطوار.

قمت بفتح الورقة والّتي هي عبارة عن رسالة مجهولة المصدر مكتوبة بمداد مختلف كأنّه دماء أو ما شابه ذلك، لا يهم المهم هو فحواها.

الرسالة الأولى

بين مطرقة التّمرد وسندان العصيان، رغبةٌ مُلّحة كما الإدمان، نفحة غرور وعنفوان، حبّ السلطة والتوسل لسلطان، شهوة ..مال ..أكفان، قهر.. ظلم ..وجَور العدوان، أكل لحوم الغير بين بني الإنسان، عهرٌ.. دناءة .. دثنت الأديان، قلوبٌ ظلمة دَثرت الأكوان، بؤسٌ .. يأسٌ ليس للأمل عنوان، تشرد.. خوف ..فقدنا الأمان..

بأيّ زمانٍ نحن ؟!

بأيِّ ذنبٍ سُلبنا الأوطان؟!

سَلّ روحك أنت بأيّ مكان

أبحث عن مخرج من هذه القضبان

انجو بذاتك قبل فوات الأوان.

بحقِّ الله من ذا الّذي كتب هذه الرسالة الّتي تحكي واقعنا الآن؟

من ذا الّذي صقل كل حكمته في هذه السطور الّتي تمثلنا الآن؟

كلّي يقين بأنّ هذه الرسالة وُضِعت هُنا منذ عقود، وأؤمن جيدًا بأنّ من كتبها ليس من نسل الأنبياء لأقول أنّه تنبأ بواقعنا منذ زمن؛ لكن ماذا يقصد بِانجو بذاتك؟

من المؤكد أنّ هناك شيءٌ خفي في مكانٍ ما، عليَّ أن أجده مهما كلف الأمر.

جددت عزيمتي وبدأت البحث، رغم أنّ البحث يشبه البحث في المجهول؛ ولكن لا سبيل آخر.

بحثت كثيرًا حتّى أعياني الإرهاق، فجلست مُسندًا رأسي على ركبتي، لَفت انتباهي قطعة بلاط غير مثبتة بشكلٍ جيد، أزحتها من مكانها لأجد تحتها رسالة أخرى، تنفست الصعداء حين رأيتها، كيف لا وأرى فيها خلاصي.

هممت بفتحها فورًا لأقرأ مضمونها الّذي يقول:

الرسالة الثانية

حَملتُ على عاتقي وِزر ذنبٍ لم أقترفه، ما بئتُ به قط، أصابني منه الوَصب والنَصب، حملته أربعون عامًا ظلمًا وافتراء، سلوانِ الوحيد أنّه اختبار الله.

كم من المتعب حمل أوزار الذنوب، أثقل كاهلي حمل ذنبٍ واحد كلّ هذه المدّة حتّى خِلّتُ أنّه لن يفارقني يومًا؛ لكن برأني الله

حملني القرآن بين أحضانه

ولفظ براءتي بثغره الحاني

كُشِفت الحقائق وعُرِف الجاني

وهذا أنساني ما كنتُ أعاني

قرونٌ مضت على هذا الكلام، ولا زِلت متهمًا ..
وقحًا في نظر بني الإنسان
حتّى في حكايات الأطفال متوحشًا .. مرعبًا
..مُدان
ولأنني ذو عمرٍ قصيرٍ فانِ
وسمني الإنسان بذنبٍ طارد أحفاد أحفادي .

#ملاحظة
اقرأ رسالتي وأفهم المُراد
فبين ثنايا حروفي مفتاح الباب

تُرى من وضع هذه الرسائل؟!

ألم يفكر ماذا لو بقيت طيّ النسيان؟

أو لم يصل لها أحد، يبدو أنّها شغلت حيزًا كبيرًا من وقته، أو رّبما قد حُبِس في هذا المكان ففضل أن يقضي على وحدته بكتابتها.

ولما أشغل عقلي في هذا؟ الأجدر أن أشغله في حل هذا اللغز الغريب.

شرعت أفكر في حلِ ما كُتِب، فكرت مليًا حتى أرهقت خلايا دماغي، وفجأة لمع في عقلي الحل

كيف غفلت عنه كلّ هذا الوقت، والحل معي منذ البداية، إنّه محور اسمي كيف لم يخطر لي، وما أن نطقت بالإجابة، حتّى فُتحت بوابة من العدم، وكأنّها فتحت بوابة القدر أمامي.

خَطوتُ خطواتي الأولى من البوابة، ظننت أني قد خرجت ولكن هيهات، انتقلت لغرفة أكثر غرابة، جدران مطلية بعدة ألوان، صورٌ لأشباحٍ من عالمٍ آخر، أظنها كانت لفنان أخذت نفسًا عميقًا ودخلت، ليغلق الباب خلفي وأعود لصندوقٍ مُغلق.

ومن أين أبدأ هنا؟!

سمعت صوتًا يقول:

=مرحبًا بك في غرفة الفنون، الفن الأغرب على وجه الأرض، يبدو أنّك تملك حظًا سيئًا للغاية، حتّى ارتميت في أحضان هذه اللوحة المُعضلة.

سَرت رعشةً في جسدي من رأسي لأخمص قدميّ، تلفتُ يمينًا ويسارًا لم أجد أحد.

من أين يأتي هذا الصوت؟!

لا شّك أنّ هذا المكان أثر عليّ وأصبحت أهلوس.

=يكفيك تفكيرًا وشرود، وهلُّم إلي لنتحدث قليلًا.

_من أنت بحقّ السماء؟!

ألا يكفيني أنني تائه، ضائع في هذا المكان.

=أنا هنا يا ضيفنا، انظر في صدر هذه الغرفة ستراني.

جلتُ بنظري أرجاء الغرفة، حتّى وقعت عينيّ على لوحةٍ تتوسط الجدار، تحمل في إطارها التراثي القديم، رسمة لشخصٍ مُسن رّبما تجاوز التسعين.

_إذن ها أنت ذا، قابعٌ في لوحةٍ تجاوز عمرها العقود، وتظن أني أصدق أنّك المتكلم، أعلم أنّك مجرد هلوسة لا أكثر.

=دعك من هذا الكلام الفارغ واقترب إذا أردت النجاة.

يبدو أنّه لا خيار أمامي سوى المُضي قُدمًا مهما كلف الأمر.

تقدمت بخطىً مترددة، تنهشني التساؤلات، كيف لصورةٍ أن تتكلم؟

أقسم لو أنّ أحدهم أخبرني ذلك، من المؤكد سأنعته بالجنون.

جلست متكئًا على الحائط الّذي يحمل الصورة، ممسكًا قلبي بكلتا يديّ.

=ما بك مذعورًا هكذا وكأنّك ترى شبحًا؟!

_وكأنّي!!

من المؤكد تمازحني، أولست شبح؟

=شبح!!

أجل شبح فقد طالت مدة مكوثي محتجزًا في هذه اللوحة البالية، أود أن أرتاح بعيدًا عن هذا المكان،

أود أن أحوم في عالم الأرواح الّذي من المفترض أنّي به منذ زمن.

_ومن يمنعك، لما تقطن هنا إن كنت لا تحب ذلك؟

=صحيح لا أحبّ ذلك، وفي كل يوم أرجو الله أن يتعثر أحد بهذا المكان علّه يستطيع إنقاذي؛ ولكن دون جدوى.

أتحسب أنّ هذا الأمر بمحض إرادتي، لو كان بإمكاني لما مكثت ثانية هنا؛ ولكن لعنة أسرتني ولا تُبطل إلا إن دخل أحدهم المنزل وخرج سليمًا معافى.

_ويحك يا هذا، ترجو الله أن يقذف بأخرين هنا ليُقتلوا.

=لا نيّة لي في ذلك، ولكنني كرهت الأسر، وكرهت نفسي وأنا هنا أود أن أخرج.

_وما هو سبيل الخروج؟

=ما من سبيلٍ إلّا أن تجتاز هذا المكان وتحل كل ما يعترضك من ألغاز.

_وإن لم أفعل ذلك!

=لا خيار أمامك وإلّا سيكون مصيرك الموت لا محالة، لأنّه من المستحيل أن يدخل أحد هذا المكان بكامل إرادته.

_تبًا لحظي العاثر الّذي أدخلني تلك المتاهة.

=لا تَلُم حظك واسعى للنجاة، غالبًا هناك درس يجب أن تتعلمه.

_حسنًا وهل لدي خيار أخر، أخبرني ما في جعبتك.

=اقترب وانتشل تلك الورقة المختبئة في جيبي منذ زمن وأقرأ ما بها.

_أضحكتني يا هذا أنسيت أنّك مجرد لوحة، كيف لي أن أخرج ورقة من جيبك.

=يا لك من متسلط اللسان نفذ ما أقول ولا ترهقني وترهق نفسك.

_حسنًا.

اقتربت من اللوحة، و يا عجبي مما رأيت! لم يكن مجرد لوحة كما ادعيت، كان ممتثلًا بكيان داخل الإطار.

ومن قال أنّي بعدما رأيت أملك الجرأة للاقتراب أكثر.

أخذت نفسًا عميقًا وانتشلت الورقة من جيب هذا الغريب.

فتحتها بيدين مرتعشتين، وكان مضمونها

الرسالة الثالثة

الحياة عبارة عن رحلة ونحن ركاب في هذه الرحلة سواء شئنا ذلك أم أبينا، رحلة تأخذنا دون أن نعرف وجهتنا، نقف في محطاتٍ مختلفة وفي كلّ محطة من هذه المحطات نتزود بالكثير والكثير، ففي بعضها نزداد قوة وفي أخرى نعيش الكسر، وفي منها لا ندري على أيّ برّ نرسو من شدّة التيّه الّذي يعترينا، رحلة فرضت علينا ولا مفر منها إلّا إليها، وما نحن في هذه الرحلة إلّا مجرد كلمات عابرة يكتبها الماضي ويمحوها المستقبل،

لذلك علينا أن نعلم كيف نجعل من هذه الكلمات خالدة في عقول من خلفنا وناشرة عبقها عبر الاجيال.

قرأتها أكثر من مرّة ولم أجد أيّ لغز.

_أتهزأ بي، أين اللغز في الموضوع؟

=هذه رسالة لك يا ضيفنا العزيز، علّك تحتاجها يومًا ما، أما اللغز عليك أن تعود بذاكرتك للماضي تسع سنوات، وبعدها نكمل حديثنا.

_ تسع سنوات! وكأنّك ساعدتني كثيرًا، ماذا سأتذكر لأتذكر، إنّه عامًا كاملًا ولا شّك أنّي سأسهو عن بعض الأحداث.

=سأعطيك تلميح، وعليك تذكر الشيء المرتبط به.

_حسنًا، جُد عليَّ بما عندك.

=رهبة اعترتك في ذاك اليوم، وقررت لحظتها الانسحاب؛ ولكنك لم تفعل لأنّك رأيت من يدعمك هناك.

رهبة، هناك من يدعمني، ماذا حدث يا ترى؟!

أطبقت بكلتا يديَّ على رأسي في استحضار تلك الذكرى، جاهدت كثيرًا وأنا أحاول، وبعد عناء

طويل، امتثلت تلك الذكرى أمام عينيّ وكأنّها حدثت اليوم.

Flashback

ضجيج، فوضى، المسرح يَضج بالكثير، الكثير الّذي يصعب على عقلي تحمله، محالٌ أن أخرج أمام كلّ هذا الحشد الغفير.

_أوس حان دورك يجب أن تصعد على المنصة.

=لا استطيع فعل ذلك، لا استطيع.

_بلى تستطيع، ولا تملك الكثير من الخيارات، لأنّك لو لم تفعل سوف يطبع هذا اليوم في ذاكرتك ذكرى بائسة، ما من أحد سينسى ضعفك وجبنك، وسيلاحقك هذا مدى الحياة.

=لكن ..

_بدون لكن يا أوس، أنسى الجميع وركز على من تحبّ بينهم، هذا سيعطيك الجرأة والشجاعة.

نظرت من خلف الستار لأرى والدي في الصف الأول، أيعقل هذا؟!

أبي الّذي تكبدت العناء في إقناعه بارتيادي هذا الفرع، يأتي إلى هنا ليكون جانبي، لم أتوقع هذا قط ولا حتّى بأحلامي.

حاولت التحكم برهبتي الشديدة، وصعدت المنصة.

اختفت جميع الحشود في نظري، وبقيَّ وحده متربعًا، لامعًا، متألقًا بحضوره البهيّ، الشيء الّذي شجعني وجوده الّذي يبث الأمان رغم اعتراضه على ميولي واختصاصي.

هم الآباء هكذا رغم كلّ ما يحدث، ورغم الاختلافات إلّا أنّهم يقفون معنا لا علينا.

انتهت مناقشتي وأعلنت النتيجة.

عرض شريط ذاك اليوم الّذي اخبرت عائلتي برغبتي الّتي أودّ أن أدرسها.

كيف انتفض والدي كالبركان الثائر في وجهي ووبخني لأنّه أرادني أن أكون إما مهندسًا أو طبيبًا، وفي النهاية بكلّ بساطة أخبره أنني سأكون فنانًا، كان خبري كالصاعقة بالنسبة له.

_سامحك الله أعدتني للذكريات

=الذكريات مفيدة في بعض الأحيان، لأن اليوم خلاصك معتمد عليها.

_وكيف ذلك؟!

=ما عليك سوى أن تنطق باسم اللوحة الّتي ناقشتها في ذلك اليوم وستنجو من هذه الغرفة.

_لحظة!!

كيف تعلم هذه الأشياء عني؟!

=الأمر بغايّة السهولة، كلّ ما في الأمر أنّي أقرأ داخلك يا أوس.

كُفَّ عن أسئلتك الّتي لن تفهم أجوبتها مهما حاولت واسعى للخلاص.

كيف لي أن أنسى هذه اللوحة الّتي استحوذت على كلّي وكامل وقتي وجهدي حتى أدرسها بشكلٍ جيد.

عزيزي القارئ حان الوقت كي تساعد صديقنا أوس في فتح الباب، هذه المرّة عليك حلّ اللغز؛ لذلك أقرأ بتمعن وافهم الكلام حتّى تفتح الباب.

الرسالة الرابعة

رُسِمتُ بريشةِ مُهندسٍ وفنان

وكساني بِحلّة أجمل الألوان

عميقة، جميلة وأحمل عدة معان

كان مصيري لوحًا خشبيًّا وأولوانًا زيتيّة

الكثير من الناس يأخذني للسخريّة

قديمة، عريقة في متحفٍ مرمية

أعود للقرن السادس عشر حيثُ

رُسِمت لأزين عش الزوجية

ولسببٍ ما استحوذت عليَّ فرنسا وأخذت الملكية

حتّى القرن التاسع عشر كنت لوحةً عادية

أمّا في العشرين فنجمة مضوية

مميزة بابتسامة تضعك بين ألف إشارة استفهامية

بارعٌ من رسمني استخدم خلفي ألوانًا باردة وبالحارة ميزّ الشخصية

هل عرفت من أكون يا صاحب القريحة الذهبية؟!

عزيزي القارئ خُذ نفسًا عميقًا وثمَّ أكمل

.....

الغرفة الثالثة..

وكالعادة صندوقٌ مُغلق، قد ضِقت ذرعًا من هذا الحال، إلى متّى؟!

لكنّ هذه المرّة لا يوجد لوحات غريبة، ولا حتّى جدرانٍ فارغة، هذه المرّة الكثير من المرايا.

حقيقةً إني أخشى المرايا وخاصةً ما يُحكى عنها من إشاعات، لا أعلم إن كانت حقيقة أم خيال، أو مجرد أقوال وتُرهات تقال.

وكالعادة يا سادة يتوجب عليّ القيام بجولة تفقدية لأرى ما يتضمنه المكان.

أنواع المرايا كُثر والغريب أن هذه الغرفة تحتوي على جميع أنواعها المسطحة، والمحدبة، والمقعرة، يجمعها شيء واحد وهو أنّها جميعها تتسم بقدمها وزخارفها الّتي تعود لأقدم العصور.

أصدقائي أقسم أنّي أقف في متحفٍ خاص بالمرايا.

شدَّ انتباهي مرآة متكئة على حافة الحائط، مائلة بزاويةٍ حادة جهة اليسار عكس اتجاه جميع أخواتها، أثارت فضولي تقدمت نحوها بخطىً ثابتة.

حادثت نفسي ولكن بصوتٍ مرتفع تُرى لما هي مختلفة عن الجميع، تحسستها بأصابعي ولوهلةٍ تذكرت المرآة الشهيرة في فيلم Snow White مرآة الخالة الشريرة الّتي أرادت قتل بياض الثلج، أيعقل أن تكون هي المرآة ذاتها، ضحكت ونفضت تلك الأفكار من رأسي ونظرت لنفسي فيها، لم أكن أنا في الانعكاس، كان هناك شخصًا يشبهني ولا يشبهني في نفس الوقت، أمر محيّر أليس كذلك.

كان الانعكاس يشبهني بالشكل ولكن معالم وجهه الشاحب، والعينين المحاطتين بالأسود، والهزال الشديد الّذي يعاني منه يقول بأنّه ليس أنا، لم يَرق لي هذا الحال فقررت الابتعاد عن هذه المرآة الغريبة.

لحظة!!

شيءٌ ما يمنعني من المسير، وكأنّ الأرض تشبثت بكلتّا قدمي، والأكثر غرابة أنّي أندفع باتجاه المرآة دون إرادةٍ مني، كأنّ مغناطيسٌ يجذبني إليها، أحاول بكلِّ قوايّ لكن لا يجدي الأمر، أمضي قُدمًا نحوها، ماهي إلّا ثوان وأصبحت أسيرًا داخل المرآة.

كيف سأخرج من هنا؟

ما السبيل؟!

همسًا خفيف يداعب مسمعي

□لا سبيل لذلك سوى أن تتعلم درسًا وتكشف لغزًا، وإلّا...

_وإلّا ماذا؟!

■وإلّا ستبقى أسيرًا هنا حتّى تلقى حتفك.

أصابت جسدي رعشة قاتلة اعتلتني من رأسي لأخمص قدمي، مجرد التفكير في الموضوع مرعب، كيف إن كنت سأعيش مع الموت في كلّ لحظة حتّى يأتي الوقت الّذي تُشيّع فيه روحي.

يا ويل حالي، تبًا وألف تبًا لتلك العصبية الّتي قادتني إلى هنا، إن خرجت سالمًا سوف أقلع عن هذه العادة بكلّ ما أوتيت من صبرٍ وجلادة.

■بماذا تفكر الآن، ألن تتجول في هذا المكان بحثًا عن خلاصك؟

_من أنت بحقِّ الله، وما الّذي يحدث، تارة أحدث صورة وتارة أهلوس.

■أنا قرينك أيّها البائس، ولكن لشدّة خوفك لم تجرؤ على الالتفات حولك، ولا حتّى أن تُدير رأسك بضع درجات حتّى تراني أنا ونصفك الآخر الخَيّر.

علقت الكلمات في حنجرتي، ما عدت أقوى على التفوه ببنس شفة.

■ألم أقل لك لن تملك الشجاعة لتنظر إلينا، فرداء الخوف ظاهرًا متجليًا على ملامحك.

فكرت مليًا، ماذا لو نظرت لن يحدث أسوء مما حدث، جمعت شظايا شجاعتي المتناثرة منذ علقت في هذا المكان، وألتفت خلفي لأرى منّي اثنان، أحدهم يرتدي حلّةٌ بيضاء، والآخر يتوشح السواد كامل جسده من الأعلى للأسفل.

أصدقائي أقسم للمرّة الثانية لو أنَّ أحدهم أخبرني بأنّه رأى هذا لنعته بالجنون الخالص، ولكنّ كيف أكذّب نظري وسمعي وكلّ حواسي.

□عزيزي أوس لا تنصت كثيرًا لما يقول من المؤكد أنّه لا يريد لك أن تنجو، اتبع إرشاداتي وسوف أساعدك ما استطعت.

■من الغباء تصديق هذا الكلام، هنا أرضي وملعبي وإن لم أخرجك أنا فلن تنجو بكلِّ تأكيد.

_ومَن منكم الصادق؟!

□اتبع قلبك يا أوس هو مرشدك الدائم.

■بل اتبع عقلك وخذ بالأسباب وفكر قبل أن تختار.

وقعت في شرك الحيّرة، وهو أحد أشد المصائد خطورة، بين خيرٍ وشر، نجاة وموت..

يا إلهي ألهمني الصواب، فما عدت أقوى على كلّ هذا.

تركت الاثنين خلفي ومضيت، وأقشعر بدني مما رأيت.

دمار، خراب، جثث، أشلاء، ركام وحطام، نيران في كلٍ مكان، دموع، ثكلى وأيتام، من المؤكد ليست القيامة.

هذا المشهد شهدته من قبل، أحاول استجماع ذاكرتي، نعم رأيته من قبل، إنّها الحرب، الحرب الّتي جردتنا من كلّ شيء حتى أحلامنا، الحرب الّتي ما وضعت أوزارها بعد.

لا زلت أذكر ذاك اليوم وكأنّه الآن أتممت عامي السابع والعشرون وعلى ما يبدو أنّ شرخ ذاك اليوم

الذي مضى عليه ست سنوات سيبقى راسخًا في الذاكرة، لن تمحوه الأيام.

أيامًا عجّاف مرّت على البلاد والعباد، ولكنّها كانت بمثابة غربالٍ للحقائق والأقنعة، انسدلت ستائر المسرحيات المقامة، وسقطت الأقنعة.

ماذا دهاني الآن عليَّ أن أجد خلاصي من هذه المرآة البائسة الّتي أعادتني بالزمن أعوامًا وأعوام.

الضجيج يملأ المكان، صوت الانفجارات، إضافةً للإسعاف والإطفاء، مزيدًا عليه الصراخ والبكاء.

كلّ ذرةً من تراب الوطن تبكينا، تبكي طفولتنا وشبابنا، تبكي أحلامنا الّتي شُردت على الطرقات، فما عاد باستطاعتها أن تدثرنا بالأمان الّذي شهدناه في أحضانها، ما عاد بقدرتها أن تَلِم شملنا، كلّ ما تستطيع فعله أن ترثينا واحدًا تلو الآخر.

بدأت بجولة بحثي عن المخرج، ولكنّ لسوء حظي أن اثنين ينقروا برأسي كالمسمار، كلٍّ منهم يريد جذبي لصفه، وأنا لست قادر على الاختيار، حاولت تجاهلهم قدر المستطاع.

لا أعلم كم المدّة الّتي أمضيتها أسير هنا وهناك في طرقاتٍ بدت غريبة لي جدًا وكأنّها ليست في

بلادي، عانيت، عانيت لا حلّ ولا حتّى إشارة صغيرة تنقذني، ليتطفل عليّ قريني الخيّر

□خذ مني هذه الزجاجة وأخرج ما فيها، علّك تجد حلًا يرضيك.

_ومن أين أتيت بها؟!

□وبما يهمك الأمر، إنّها رسالتك يا أوس اسمع مني ولو مرّة.

_حسنًا سآخذها.

التقطت الزجاجة من يده وأخرجت الورقة منها.

■انصحك أنّ لا تفتحها، لن تُنفعك بشيء، ارمها وردّها لمكانها وابحث عن شيئًا آخر.

□لا تنصت له يا صديقي، إنّه لا يودك أن تخرج من هنا، حتّى تبقى صديقه في هذا الظلام.

نفضت تلك الأقوال عن رأسي واتبعت قلبي وفتحت الرسالة.

وكان مضمونها...

الرسالة الخامسة

ما هذه الأيام الّتي وصلنا لها، أيامٌ معوجة جدًا كلّ ما فيها يَسير بشكلٍ خاطئ، الجميع عكس التيار، حروبٌ ونيران، ظلمٌ، قهرُ، انتهاك للإنسان، دماء في كلّ مكان، كلّ شيء حولنا اصطبغ باللون الأحمر، أطفالٌ تُقتل، شُبانٌ تُحرق ونساء يستباح عرضها.

عاجزةٌ عن وصف هذا الحال فلقد أصبحنا في زمان لا نحسد عليه أبدًا.

حالتنا يُرثى لها أين ذهبت الإنسانية؟

أيعقل أنّها لم تعد موجودة؟!

سؤال محير ففي الظرف الراهن كلّ شيء يثبت أنّها انعدمت.

أترانا شيعناها إلى مثواها الأخير !!

صحيح جدًا هذا الكلام، وصلنا لزمانٍ كلّ شيءٍ فيه مباح، لم نَعد نُميّز بين الزيف والحقيقة، بين الواقع والخيال، لم يَعُد شيئًا كما كان.

وأسفاه على حالنا الّذي انقلب ١٨٠ درجة.

■قلتُ لك لن تنفعك هذه الرسالة بشيء ولكنّك لم تُصغِ.

_اصمت أنت ولا تتكلم.

■لما؟! لأنّني أقول الحقّ.

وأنا أحاول إعادة الرسالة لسابق عهدها، لفت انتباهي كلمات مكتوبة على الوجه الأخر للرسالة،

كان مكتوب

#ملاحظة

تذكرة خروجك من هذا المكان توجد تحت شجرة تربط بها علاقة قديمة، ابحث لتنجو.

شجرة تربطني بها علاقة، وكيف هذا؟

وما أكثر الأشجار في هذا المكان.

□تذكر جيدًا يا أوس، هناك شجرة مميزة جدًا يستحيل أن تنساها.

_يستحيل أن أنساها، ولكني لا أتذكر.

أصبحت أسير في الطريق ذهابًا وإيابًا، علّي أستحضر أيّ شيء في ذاكرتي يساعدني، سيطر التوتر عليّ ولست أذكر، وكأنَّ هذه المرآة البائسة مسحت ذاكرتي عندما أدخلتني إليها.

■غير معقول، أعلم أنّك أشد دهاءً وذكاء، كيف لملاحظة بسيطة لست تعلم من كتبها أن تشغلك حدّ الانهماك، غريب أنت يا صديقي مستسلمٌ لأبعد الحدود.

_كفاك نقًا وأخرج من رأسي، لست أنقصك.

■أخبرتك مسبقًا إن لم أخرجك من هنا ستبقى حتّى الفناء، أسيرًا لما خلف حدود الزمن المتشكل بحدود مرآة جذبك منظرها.

_اصمت يكفي ما قلته حتّى الآن، لست بحاجة لتفاهات ما تقول.

■حسنًا.

_هكذا أفضل.

وعدت أجوب الشارع بخطواتي المتهالكة، لينقذني قريني الخَيّر بما قاله لي.

□إني أتألم عليك لما وصلت له، مؤسف جدًا ما آلت له حالتك، اسمع سأخبرك بأمر ربّما يساعدك في حصر تفكيرك والتوصل للمكان الصحيح.

_أدلي بدلوك أرجوك.

□يوم وُشِمَ في ذاكرتك ما استطعت نسيانه حتّى هذه اللحظة، وأثره ليس فقط في ذاكرتك بل مرسومًا على يدك اليمنى بندبةٍ لن تفارق أبدًا.

بمجرد نظري لتلك الندبة ارتسم ذلك اليوم أمامي وكأّنه البارحة، امتثل أمامي بعذابه ودماره وندبته الّتي علقت معي، وأخرى في الروح لن تندمل وتشفى وتؤلمني بين الحين والآخر، نُدب ذاك اليوم أبقتني أسير تلك الحادثة.

الآن عرفت الشجرة المذكورة في الملاحظة، حملت نفسي متكئًا على قريني الخيّر ومضيت، وقعت أكثر من مرّة وتعثرت خُطاي، وحاول منعي من التقدم نصفي الآخر الشرير، ولكنّني ما استسلمت وتابعت حتى تهاوت مفاصلي عندما رأيت تلك الشجرة وذاك المقعد الّذي كُنا نتسكع عليه دائمًا أنا وأصدقائي رحمهم الله.

اقتربت زاحفًا حتى وصلت الشجرة، وبدأت أفتش عن أيّ علامة، فتشت حتّى تعبت، وعندما لوح لي الاستسلام مرحبًا بي، وقعت عيني على شرخًا في جذع الشجرة، علمت أنّه بوابة خروجي فور رؤيته.

سحبت الورقة المخبأة في رحم هذا الشرخ مُخرِجًا إيّاها، لترتسم ابتسامة نصرٍ على ثغري، وابتسامة فرحٍ على ثغر قريني الخَيّر، أما ذلك الشرير فما عِدت أراه، يبدو أنّه غار في أعماق هذا الجحيم الّذي وقعت ضحيته.

قمت بفتح تلك الرسالة الّتي كانت محكمة الإغلاق ومحصنة وكأنّها كنزًا عظيم، والحقّ يقال هي كذلك ففيها الخلاص.

بدأت أقرأ ما خُط فيها بصوتٍ مرتفع، ولست أعلم لما قمت بذلك.

عزيزي القارئ أعلم أنّك بِتَّ تسمع صوت أوس الآن لذلك ساعده حتّى يتمكن من فتح الباب الآخر

أنا من أعرق البلدان

شعبي مُتعدد الأديان

أروي في اسمي حكاية

وبين ثنايا حروفي ألف قصةٍ ورواية

ركز معي بين السطور

وأحلل العقدة وفكر جيدًا ما أرويه عن أيّ بلدٍ يدور

تجد في اسمي ما يوضع حول المعصم

واسم بلدٍ لا يربطني به صلّة دّم

فيّ ما تكنه داخلك من خفايا

وشخصٌ يروي الحَكايا

وآخرٌ خلف القضبان

واسمٌ يسمى به إنسان

وأضف أيضًا ما يأتي بعد كربٍ شديد

وختامها بيت القصيد

ولي في الحسن آية .. أنقذ نفسك وحلّ الأحجية

خرجت من جحيم المرآة إلى غرفة أشدُّ حِلكة واسوداد.

على ما يبدو أنّني ما زلتُ عالقًا بلعنة المرآة، لكن لا متأكد أني خرجت من حدودها اللعينة، وإلّا لما كانت اختفت الحرب والصراخ الّذي أدمى أذنيّ.

من المؤكد أنّ هناك لغزٌ جديد. ومن يعلم كم من الغرف تبقى في هذا المنزل الملعون.

ها أنا ذا في الغرفة الرابعة واتمنى أن تكون الأخيرة؛ لأنّني ما عدت أقوى على كلّ هذه الأهوال.

ما هذا الهدوء الغريب، ولسعة البرد القارسة، ما هكذا كان حال الغرف السابقة.

تكاتُ ساعتي عالية على غير العادة، إنّها الثالثة صباحًا، أوقن أنّ هذا هو الهدوء ما قبل العاصفة.

قد مرَّ على دخولي ما يجاوز النصف ساعة تقريبًا ولا حركة في هذا المكان، وأنا لا استطيع التحرك من شدّة الظلام، ولكن أين المفر عليَّ التحرك حتّى أجد المخرج، قبل أن يقتلني البرد والوحدة.

سرت كأعمىً لا يُبصر شيء، حتّى تعثرت بشيء فسقطت أرضًا لأفاجئ بجثةِ إنسان، صرخت بأعلى صوتي حتّى أهتز المكان، نهضت ولكن الصدمة لم أجد الجثة في أيّ مكان.

يبدو أنّي أصبت بالجنون، أو أنّ وحدتي جعلت من التهيؤات رفيقةً لدربي في هذا التابوت المغلق.

تابعت المسير بخطىً بطيئة أحاول جاهدًا ألّا أقع مرّةً أخرى، لحظة!! هدوء دعني أتأكد عزيزي القارئ إني اسمع صوت خطى، خطوة.. خطوتان

لا الجنون أحكم قبضته عليّ إنّها خطواتي، ماذا دهاني؟!

لنقطع الشّك باليّقين سوف أقف لأتأكد..

خطوات تتقدم باتجاهي، الصوت يقترب، صدقوني أنا أقف لا أحرك ساكن، وقع الخُطا يقترب جدًا، يكاد قلبي يقف، فجأة انقطع الصوت.

خفقات قلبي تجاوزت القفص الصدري، أتصبب عرقًا رغم برودة الجو، وألف إشارة استفهام عالقة في ذهني.

وأخيرًا اهتديت للحائط، أسندت رأسي عليه وجلست ألتقط أنفاسي الهاربة.

متأكد أنّي لن أخرج أوس الّذي دخل، سأخرج شخصًا أخر هذا إن خرجت من هذه الدوامة.

ما قصة الأصوات في هذا المنزل، أينما أدخل أصوات، حتّى السكون صوته مرعب.

صوت تنقيط، أيعقل أنّه صنبور ماء؟!

أو ربّما صوت يعزفه عقلي الباطن لأدخل في نوبات ذعرٍ في رحلتي هنا، الأفضل أن لا أفكر في هذا الأمر.

لكنّ هذا الصوت مزعج جدًا وتزداد وتيرته مع تقدم الوقت، قريب جدًا وكأنّه في أذني تمامًا.

أرخيت يدي المُسندة على قدمي لتغرق في بركةٍ لزجة لست أعلم ما هي.

رفعت يدي لأتحقق من ماهية الشيء الّذي أغرقها؛ لكن من شدة الظلام لم أميزه جيدًا.

جعلت يدي قريبة من وجهي علّي أعلم ما يحدث، لتُضاء الأضواء فجأة ويدي الملطخة بالدماء تكاد تَلتصق بوجهي.

أفقت من صدمتي الّتي أردتني صريع غيبوبةٍ قصيرة الأمد لست أعلم كم من الوقت بقيت فيها، رأسي يكادُ ينفجر من الصُداع، وأعصابي تالفة تمامًا لست أقوى على الحِراك.

نهضت لأتابع البحث عن المخرج فيكفيني ما لقيت الليلة من غرائبٍ وعجائب.

جلّت بنظري أرجاء الغرفة، ليسقط فكيّ دهشةً مما رأيت، بقعة دماء كبيرة كُتبت فيها عبارة تقول:

الرسالة الخامسة

لا تجعل لحظات الخصام تُنسيك لحظات الودّ حتّى لا تتحول اللحظات إلى ساعات وأيام وشهور.

وهامشٌ للرسالة يقول:

اتبع آثار الأقدام

وكغريقًا تعلق بقشة تعلقت في هذه الكلمات الّتي كتبت بالدماء.

اتبعت الخطوات وقلبي بين ضلوعي يُعتَصر، تُرى دماء من هذه؟

هل تعود لأحد ضحايا هذا المنزل المشؤوم؟

هل سأكون أحد هذه الضحايا ويُسطر اسمي في قائمتهم يا تُرى؟

تابعت سيري والأسئلة تنهشني من الداخل.

وأخيرًا وصلت لنهاية الطريق الّذي خطته لي تلك الخُطى المجهولة المصدر.

شيءٌ ما يُمسك حنجرتي، صوتي يأبى الخروج، الدهشة اتحدت مع الصدمة وألجمت لساني، لكني أصرخ من أعماق داخلي، وبأعلى صوتي إلّا أنّ هناك حائلًا يقف بين صوتي ومسامع الأخرين.

عزيزي القارئ هل تسمعني؟!

هل تسمع مناداتي؟!

هل تسمع رجائي لك بمساعدتي؟!

إن كُنت تسمعني أرجوك أنقذني فأنا لا أسمعني

متأكد أنّ الحيّرة تقتلك لتعلم ماذا رأيت حتّى أصبح هذا حالي، لا تقلق سأخبرك بما رأيت

عُدّ معي إلى الخلف قليلًا

وأخيرًا وصلت لنهاية الخُطى، لأندهش برؤية الجثة الّتي تعثرت بها في بداية رحلتي في هذه الغرفة، جثةٌ داخل تابوت مُسند بشكلٍ عامودي على الحائط ويحمل تذكرة خروجي في يده.

أخذت تذكرتي من يده وبدأت أفكر في تحليل ما كُتب فيها.

عزيزي أيّها القارئ ساعدني أرجوك

الرسالة السادسة

في هذا اللغز سأبتعد عن تنميق الحروف والبلاغة

وسأعود بذاكرتك لبداية الرحلة

لغزك الأول إجابته هي المحور

ذُكِرت في القرآن في بداية السورة بثلاثة مواضع، لو جمعت هذه المواضع ينتج معك رقمًا زوجيًا مُكون من منزلتين مُتشابهتين، اكتشفه.

انتقل معي لغرفة الفنون فيها عُدّت بذاكرتك عدّة سنين، احفظ عددها جيدًا.

وأضف إلى هذا وذاك عمرك أيّها الضيف

قُم بحلِّ هذا اللغز الأخير وأخرج من هنا وعُدّ لمنزلك.

هل عِشت شعور أن تخونك ذاكرتك وأنت في أمس الحاجة إليها، أنا أعيشه الآن.

وكأنّ ذاكرتي مُحصنة بأسوارٍ وقضبان، أعصر ذاكرتي كما أعصر البرتقالة متمنيًا أن تزورني ولو حتّى فكرة، استهديت بالرّحمن، وقرأت بعض آيات القرآن، وأخذت نفسًا عميقًا لأستعيد الهدوء لداخلي.

وما هي إلّا ثوان انجلى كل الظلام وتبدد بإشراقة الصباح الّتي شهدتها بعد ليلة كانت كسيمفونيةٍ مترعة بشتى أنواع الأنغام.

لكني لم أخرج من المنزل كما كنت.

.....

رَبتُ على كتف الشاب الّذي فرّ من منزله إثر نوبة عصبية، وقلت له:

هذا ما حدث معي في تلك الليلة الّتي انقضى عليها خمسة أعوام ولم أنسى أيّ تفصيلٍ منها مهما كان صغير، الليلة الّتي كانت من أشدّ وأشنع الليالي الّتي

قضيتها، وكلّ ما عشته فيها كان نتيجة عصبيتي المُفرطة، الّتي شيعتها لمثواها الأخير بعدما حدث.

أنصحك يا بُني أن تتحلى بالحلم والهدوء، وتخلى عن تلك العصبية، فصدقني لم توصلك لشيء سوى الخراب والدمار.

قمت من مجلسي الّذي كنت فيه.

أعلم عزيزي القارئ أن الفضول ينتابك حول خروجي من المنزل وخاصةً جملتي الأخيرة بأنّي لم أخرج كما كنت.

فضولك يعجبني يا هذا، لذا سأخبرك

خرجت من المنزل وقد أقمر ليلي (شاب رأسي)، قلبي القاسي العنيد، أصبح لينًا هشًا يتأثر بأبسط الأشياء، عصبيتي وهذه النقطة الأهم أقلعت عنها للأبد.

حتّى الآن تنتابني رعشات ذعر عندما أكون بمفردي في الليل، حتّى الآن مفاصلي ترتاب من ذكر الليلة المشؤومة.

تمت بحمده تعالى

هل سَبق ورأيت نسختين منك كلّ واحدة تحمل طابعاً خاصاً؟!
هل سَبق وتناقشت مع نسختيك اللّتين تحاولان جرّك إلى المجهول؟!
سبق وأن طُرِدتَ من روحٍ الملائكية، وقرينك الشيطانيّ كلٌ منها يحاول الأخذ بيدك إلى متاهات لا خروج منها ؟!
هل سَبق وتحدثت مع أشياء لا وجود لها إلّا في مخيلتك أو هكذا كنّت تظّن؟!
هل تعرضت لأحجيةٍ معقدة عليك أن تجتازها لتنجو بحياتك؟
بين دفتيّ هذا الكتاب سترى هذا وتواجه هذه المخاوف الّتي لطالما حاولت الابتعاد عنها..

د. عهد حاتم الابراهيم